رأيٌ جديدٌ

في كتب الأدب القديمة[١]

أدبُ الكاتب لابن قتيبة من الدَّواوين الأربعة الَّتي قال ابن خلدون فيها من كلامه على حدِّ علم الأدب : « وسمعنا من شيوخنا في مجلس التَّعليم : أنَّ أصول هذا الفنِّ ، وأركانه أربعةُ دواوين ، وهي : أدب الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب الكامل للمبرِّد ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب النَّوادر لأبي علي القالي البغدادي : وما سوى هذه الأربعة فتبعٌ لها ، وفروع عنها » .

وقد يظنُّ أدباءُ عصرنا : أنَّ كلمة ابن خلدون هذه كانت تصلح لزمنه وقومه ، وأنَّها تتوجَّه على طريقة من قبلهم في طبقةٍ بعد طبقةٍ إلى أصول هذه السلسلة ؛ الَّتي يقولون فيها : حدَّثنا فلانٌ عن فلانٍ إلى الأصمعيِّ ، أو أبي عُبيدة ، أو أبي عمرو بن العلاء ، وغيرهم من شيوخ الرِّواية نَقَلة اللُّغة ، ولكنَّها لا تستقيم في آدابنا ، ولا تعدُّ من آلاتنا ، ولا تقع من معارفنا ، بل يكاد يذهب من يَتغرَّرُ منهم بالآراء الأوربيَّة ؛ الَّتي يسمِّيها : عِلمَه . . . ومن يسترسل إلى التَّقليد ؛ الَّذي يسمِّيه : مذهبَه . . . إلى أنَّ تلك الكتب ، وما جرى في طريقتها هي أمواتٌ من الكتب ، وهي قبورٌ من الأوراق ، وأنَّه يجب أن يكون بيننا وبينها من الإهمال أكثر ممَّا بينها وبيننا من الزَّمن ، وأنَّ بعث الكتاب منها ، وإحياءَهُ يُوشِك أن يكون كبعثِ الموتى : علامةً على خراب الدُّنيا .

فأمَّا أن يكون ذلك علامةً على خراب الدُّنيا ، فهو صحيحٌ إذا كانت الدُّنيا هي محرِّر جريدةٍ . . . من أمثال أصحابنا هؤلاء ، وأمَّا تلكَ الكتب ؛ فأنا أحسِبها لم توضَع إلا لزمَنِنا هذا ، ولأدبائه ، وكتَّابه خاصَّةً ، وكأنَّ القدر هو أثبت ذلك القولَ في مقدِّمة ابن خلدون لينتهي بنصِّه إلينا ، فتَستخرج منه ما يُقيمنا على الطَّريقة في هذا العصر ؛ الَّذي وقع أدباؤه في متَّسعٍ طويلٍ من فنونِ الأدب ، ومُضطَربٍ عريضٍ من مذاهب الكتابةِ ، وأفقٍ لا تستقرُّ حدودُه من العُلوم ، والفلسفة . . .

---

(١) كتبت مقدمةً لشرح الجواليقي على أدب الكاتب ؛ لابن قتيبة . (س) .

فإنَّ هذه المادَّة الحافلة من المعاني تحيي آداب الأمم في أوربة وأمريكة ، ولكنَّها تكاد تطمسُ آدابنا ، وتمحقنا محقاً تذهب فيه خصائصنا ، ومقوِّماتنا ، وتحيلنا عن أوضاعنا التَّاريخيَّة ، وتفسد عقولنا ، ونزعاتِنا ، وترمي بنا مرامِيَها بين كلِّ أمَّةٍ وأمَّةٍ ، حتَّى كأنْ ليست منَّا أمَّةٌ في حَيِّزِها الإنسانيِّ المحدود من ناحيةٍ بالتَّاريخ ، ومن ناحيةٍ بالصِّفات ، ومن ناحيةٍ بالعلوم ، ومن ناحيةٍ بالآداب ، ومن ذلك ابتُلِيَ أكثر كتَّابنا بالانحراف عن الأدب العربيِّ ، أو العصبيَّة عليه ، أو الزِّراية له ، ومنهم مَنْ تحسبه قد رُمِي في عقله لهوَسه ، وحماقته ، ومنهم مَنْ كأنَّه في حِقده سُلخ قلبه ، ومنهم المُقلِّد لا يدري أعلى قَصْدٍ هو ، أو جوْرٍ ؟ ومنهم الحائر يذهب في مذهبٍ ، ويجيء من مذهبٍ ، و لايتَّجه لقصدٍ ، ومنهم من هو منهم ، وكفى .

وقلَّما تنبَّه أحدٌ إلى السَّبب في هذا ، والسَّبب في حقارته ، وضعفه « كالمكروب » : بذرةٌ طامسةٌ لا شأن لها ، ولكنْ متى تُنبتْ ؛ تنبت أوجاعاً ، وآلاماً ، وموتاً ، وأحزاناً ، ومصائبَ شتَّى .

السَّببُ : أنَّ أولئك الأدباء كلَّهم ، ثمَّ مَن يتشيَّع لهم ، أو يأخذ برأيهم ليس منهم واحدٌ نُرَى في أساسه الأدبيِّ تلك الأصول العربيَّة المحضة القائمة على دراسة اللُّغة ، وجمعها ، وتصنيفها ، وبيان عللها ، وتصاريفها ، ومطارح اللِّسان فيها ، والمتأدِّية بذلك إلى تمكين الأديب النَّاشئ من أسرار هذه اللُّغة ، وتطويعها له ، فيكون قيِّماً بها ، وتكون هي مُستجيبةً لقلمه ، جاريةً في طبيعته مسدَّدةً في تصرُّفه ، حتَّى إذا نشأ بها ، واستحكم فيها ؛ أحسن العمل لها ، وزاد في مادَّتِها ، وأخذ لها من غيرها ، وكان خليقاً أن يمدَّ فيها ، ويحسن الملاءَمة بينها وبين الآداب الأخرى ، ويجعل ذلك نسْجاً واحداً ، وبياناً بعضُه من بعضه ، فينمو الأدب العربيُّ في صنيعه ، كما تنمو الشَّجرة الحيَّة : تأخذ من كلِّ ما حولها لعُنصرها ، وطبيعتها ، وليس إلا عنصرها ، وطبيعتُها حسْب .

إنَّ أدب الكاتب ، وشرحه هذا للإمام الجواليقي[1] وما صُنِّف من بابهما على طريقة الجمع من اللُّغة ، والخبر ، وشعْر الشَّواهد ، والاستقصاءِ في ذلك ،

(١) الجواليق : جمعٌ شاذٌّ لجوالق ، وقد نسب هذا الإمام إلى عمل الجوالق وبيعها ، وهذا الجمع ليس بينه وبين واحده إلا الحركة ، فالمفردُ جُوالق (بضمِّ الجيم) والجمع بالفتح ، ومثله ألفاظٌ أحصوها : كحلاحل ، وعدامل ، وخثارم ، وغيرها . (ع) .

والتَّبسُّط في الوجوه والعلل النَّحويَّة والصَّرفيَّة ، والإمعان في التَّحقيق ، كلُّ ذلك عملٌ ينبغي أن يُعرف على حقِّه في زمننا هذا ، فهو ليس أدباً ، كما يُفهم من المعنى الفلسفيِّ لهذه الكلمة ، بل هو أبعد الأشياء عن هذا المعنى ؛ فإنَّك لا تجد في كتابٍ من هذه الكتب إلا التَّأليف ؛ الَّذي بين يديك ، أمَّا المؤلِّف ، فلا تجده ، ولا تعرفه منها إلا كالكلمة المحبوسة في قاعدة . . . وكأنَّه لم يكن فيه روح إنسانٍ بل روح مادَّةٍ مُصْمتةٍ ، وكأنَّه لم ينشأ ليعمل في عصره ، بل ليعمل عصره فيه ، وكأنْ ليس في الكتاب جهةٌ إنسانيَّةٌ متعيِّنةٌ ، فثمَّ تأليف ، ولكن أين المؤلِّف ؟ وهذا كتاب ابن قتيبة ، ولكن أين ابن قتيبة فيه ؟ .

وما أخطأ المتقدِّمون في تسميتهم هذه الكتب أدباً ، فذلك هو رسم الأدب في عصرهم ، غير أنَّ هذا الرَّسم قد انتقل في عصرنا نحن ، فإنَّا نحن المخطئون اليوم في هذه التَّسمية ، كما لو ذهبنا نسمِّي الجمل في البادية : الإكسبريس . والهَوْدَج : عربة بولمان .

من هذا الخطأ في التَّسمية ظهر الأدب العربيُّ لقصار النَّظر كأنَّه تكرار عصرٍ واحدٍ على امتداد الزَّمن ، فإنْ زاد المتأخِّر ؛ لم يأخذ إلا من المتقدِّم ، وصارت هذه الكتب كأنَّها في جملتها قانونٌ من قوانين الجنسيَّة نافذٌ على الدَّهر ، لا ينبغي لعصرٍ يأتي إلا أن يكون من جنس القرن الأوَّل .

هذه الكتب في هذه النَّاحية كالخلِّ : يسمَّى لك عسلاً ، ثمَّ تذوقه ، فلا يجني عليه عندك إلا الاسم الَّذي زُوِّر له ، أمَّا هو فكما هو في نفسه ، وفي فائدته ، وفي طبيعته وفي الحاجة إليه ، لا ينقص من ذلك ، ولا يتغيَّر .

الحقيقة الَّتي يعيِّنها الوضع الصَّحيح : أنَّ تلك المؤلَّفات إنَّما وُضعت ؛ لتكون أدباً ، لا من معنى أدب الفكر ، وفنِّه ، وجماله ، وفلسفته ، بل من معنى أدب النَّفس ، وتثقيفها ، وتربيتها ، وإقامتها ، فهي كتب تربيةٍ لغويَّةٍ قائمةٍ على أصولٍ محكمةٍ في هذا الباب ، حتَّى ما يقرؤها أعجميٌّ إلا خرج منها عربيّاً أو في هوى العربية ، والميل إليها ، ومن أجل ذلك بُنيت على أوضاعٍ تجعل القارئَ المتبصِّر كأنَّما يصاحب من الكتاب أعرابيّاً فصيحاً يسأله ، فيجيبه ، ويستهديه ، فيرشده ويخرِّجه الكتاب تصفُّحاً ، وقراءةً ، كما تخرِّجه البادية سماعاً ، وتلقيناً ، والقارئ في كلِّ ذلك مُستدرَجٌ إلى التَّعريب في مَدْرَجةٍ من هوى النَّفس ، ومحبَّتها ، فتصنع به تلك الفصول فيما دُبِّرت له مثلما تصنع كتب التَّربية في تكوين الخلُق بالأساليب الَّتي أديرت عليها ، والشَّواهد الَّتي وضعت لها ، والمعالم النَّفسيَّة الَّتي فُصِّلت فيها .

ومن ثمَّ جاءت هذه الكتب العربيَّة كلُّها على نسقٍ واحدٍ لا يختلف في الجملة ، فهي أخبارٌ ، وأشعارٌ ، ولغةٌ ، وعربيَّةٌ ، وجمعٌ ، وتحقيقٌ ، وتمحيصٌ ، وإنَّما تتفاوت بالزِّيادة ، والنَّقص ، والاختصاص ، والتَّبسُّط ، والتَّخفيف ، والتَّثقيل ، ونحو ذلك ممَّا هو في الموضوع؛ لا في الوضع ، حتَّى لَيخيَّل إليك : أنَّ هذه كتب جغرافية لِلُّغة ، وألفاظها ، وأخبارها ؛ إذ كانت مثل كتب الجغرافية متطابقةً كلّها على وصف طبيعةٍ ثابتةٍ لا تتغيَّر معالمها ، ولا يخلق غيرها إلا الخالق سبحانه ، وتعالى .

وإذا تدبَّرت هذا الَّذي بيَّناه ، لم تعجب كما يعجب المتطفِّلون على الأدب العربيِّ ، والمتخبِّطون فيه من أن يروا إيمان المؤلفين متَّصلاً بكتبهم ظاهر الأثر فيها ، وأنَّهم جميعاً يقرِّرون : أنَّما يريدون بها المنزلة عند الله في العمل ؛ لحياطة هذا اللِّسان الذي نزل به القرآن الكريم ، وتأديته في هذه الكتب إلى قومهم كما تؤدَّى الأمانة إلى أهلها ، حتَّى لولا القرآن ؛ لما وُضع من ذلك شيءٌ البتَّة .

وأنا أتلمَّح دائماً العامل الإلـٰهيَّ في كلِّ أطوار هذه اللُّغة ، وأراه يديرها على حفظ القرآن ، والذي هو معجزتُها الكبرى ، وأرى من أثره مجيء تلك الكتب على ذلك الوضع ، وتسخير تلك العقول الواسعة من الرُّواة ، والعلماء والحفَّاظ جيلاً بعد جيلٍ في الجمع ، والشَّرح ، والتَّعليق بغير ابتكارٍ ، و لا وضع ، ولا فلسفةٍ ، ولا زيغٍ عن تلك الحدود المرسومة الَّتي أومأنا إلى حكمتها ، فلو أنَّه كان فيهم مجدِّدون من طراز أصحابنا من أهل التَّخليط ، ثمَّ تُرك لهم هذا الشَّأن يتولَّونه كما نرى بالنَّظر القصير ، والرأي المعاند ، والهوى المنحرف ، والكبرياء المصمِّمة ، والقول على الهاجس ، والعلم على التَّوهُّم ، ومجادلة الأستاذ حيص للأستاذ بيص . . ، إذاً لضرب بعضُهم وجه بعضٍ ، وجاءت كتبهم متدابرةً ، ومُسِح التَّاريخ ، وضاعت العربيَّة ، وفسد ذلك الشَّأن كلُّه ، فلم يتَّسق منه شيءٌ .

وممَّا تردُّه على قارئها تلك الكتب في تربية العربيَّة ، وأنَّها تمكِّن فيه للصَّبر ، والمعاناة ، والتَّحقيق ، والتَّورُّك في البحث ، والتَّدقيق في التَّصفُّح ، وهي الصِّفات الَّتي فقدها أدباءُ هذا الزَّمن ، فأصبحوا لا يتثبَّتون ، ولا يُحقِّقون ، وطال عليهم أن ينظروا في العربيَّة ، وثقُل عليهم أن يستبطنوا كتبها ، ولو قد تربَّوا في تلك الأسفار ، وبذلك الأسلوب العربيِّ ؛ لتمَّت الملاءمة بين اللُّغة في قوَّتها ،

وجزالتها ، وبين ما عسى أن ينكره منها ذوقهم في ضعفه ، وعامِّيّته ، وكانوا أحقَّ بها ، وأهلها .

وذلك بعينه هو السِّرّ في أنَّ من لا يقرؤون تلك الكتب أوَّل نشأتهم ، لا تراهم يكتبون إلا بأسلوبٍ منحطٍّ ، ولا يجيئون إلا بكلامٍ سقيمٍ غثٍّ ، ولا يرون في الأدب العربيِّ إلا آراء مُلتوية ؛ ثمَّ هم لا يستطيعون أن يُقيموا على درس كتابٍ عربيٍّ ، فيُساهِلون أنفسهم ، ويحكمون على اللُّغة ، والأدب بما يشعرون به في حالتهم تلك ، ويتورَّطون في أقوالٍ مضحكةٍ ، وينسون : أنَّه لا يجوز القطع على الشَّيء من ناحية الشُّعور ما دام الشُّعور يختلف في النَّاس باختلاف أسبابه ، وعوارضه ، ولا من ناحيةٍ يجوز أن يكون الخطأ فيها ، هم أبداً في إحدى النَّاحيتين ، أو في كلتيهما .

* * *

وهذا شرح الجواليقي من أمتع الكتب الَّتي أشرنا إليها ، وصاحبه هو الإمام أبو منصور موهوب الجواليقي المولود في سنة ٤٦٥ للهجرة ، والمتوفى سنة ٥٤٠ ، وهو من تلاميذ الإمام الشَّيخ أبي زكريَّا الخطيب التبريزي ، أوَّل من درَّس الأدب في المدرسة النِّظاميَّة ببغداد[١] ، وقرأ الجواليقي على شيخه هذا سبع عشرة سنةً ، استوفى فيها علوم الأدب من اللُّغة ، والشِّعر ، والخبر ، والعربيَّة بفنونها ، ثمَّ خلف شيخه على تدريس الأدب في النِّظاميَّة بعد عليِّ بن أبي زيدٍ المعروف بالفصيحي[٢] .

وما نشكُّ : أنَّ هذا الشَّرح هو بعض دروسه في تلك المدرسة ، فأنت من هذا الكتاب كأنَّك بإزاء كرسيِّ التَّدريس في ذلك العهد ، تسمع من رجل انتهت إليه إمامةُ اللُّغة في عصره ، فهو مدقِّقٌ ، محيطٌ ، مبالغٌ في الاستقصاء ، لا يندُّ[٣] عنه شيءٌ ممَّا هو بسبيله من الشَّرح ، معنيٌّ بالتَّصريف ووجوهه ممَّا انتهى إليه من أثر الإمام ابن جنِّي فيلسوف هذا العلم في تاريخ الأدب العربيِّ ، فإنَّ بين الجواليقي وبينه شيخين ، كما تعرف من إسناده في هذا الشَّرح .

---

(١) أنشأها نظام الملك ، وزير ملك شاه السَّلجوقي ، المتوفى سنة (٤٨٥ هـ) . (ع) .

(٢) لُقِّب بذلك لكثرة إعادته كتاب الفصيح في اللغة . (ع) .

(٣) « يندّ » : ينفر .

وقد قالوا : إنَّ أبا منصور في اللُّغة أمثلُ منه في النَّحو ، على إمامتِه فيهما معاً ؛ إذْ كان يذهب في بعض علل النَّحو إلى آراء شاذَّةٍ ، ينفرد بها . وقد ساق منها عبد الرَّحمن الأنباريُّ مثلين في كتابه : نزهة الأنباءِ ، ولكن هذا الشُّذوذ نفسه دليلٌ على استقلال الفكر ، وسعته ، ومحاولته أن يكون في الطَّبقة العليا من أئمَّة العربيَّة(١) وهو على ذلك رجلٌ ثقةٌ ، صدوقٌ ، كثيرُ الضَّبط ، عجيبٌ في التَّحرِّي ، والتَّدقيق ؛ حتَّى كان من أثر ذلك في طباعه أن اعتاد التَّفكير ، وطول الصَّمت ، فلا يقول قولاً إلا بعد تدبُّرٍ ، وفكرٍ طويلٍ ، فإن لم يهتدِ إلى شيءٍ ؛ قال : لا أدري ! وكثيراً ما كان يُسأل في المسألة فلا يجيب إلا بعد أيَّامٍ .

وكان ورعاً ، قويَّ الإيمان ، انتهى به إيمانه ، وعلمه ، وتقواه إلى أن صار أستاذ الخليفة المقتفي لأمر الله ، فاختصَّ بإمامته في الصَّلوات ، وقرأ عليه المقتفي شيئاً من الكتب ، وانتفع بذلك ، وبان أثره في توقيعاته ، كما قالوا .

والَّذي يتأمَّل هذا الشَّرح فضلَ تأمُّلٍ ؛ يرى صاحبه كأنَّما خلقه الله رجلَ إحصاءٍ في اللُّغة ، لا يفوته شيءٌ ممَّا عُرِف إلى زمنه ؛ وهو ـ ولا ريب ـ يجري في الطَّريقة الفكريَّة ؛ الَّتي نهجها ابن جنِّي ، وشيخه أبو علي الفارسي ، ومن أثر هذه الطَّريقة فيه : أنَّه لا يتحجَّر ، ولا يمنع القياس في اللُّغة ، ويُلحق ما وضعه المتأخِّرون بما سمع من العرب ، ويروي ذلك جميعه ، ويحفظه ، ويلقيه على طلبته ، ومن أمتع ما جاء من ذلك في شرحه قوله في صفحة ٢٣٥ ، وهو بابٌ لم يستوفه غيره ولا تجده إلا في كتابه . وهذه عبارته :

قولهم : يدي من ذلك فعِلةٌ : المسموع منهم في ذلك ألفاظٌ قليلةٌ ، وقد قاس قومٌ من أهل اللُّغة على ذلك ، فقالوا : يدي من الإهالة سَنِخَةٌ ؛ ومن البيض زهِمَةٌ ، ومن التُّراب تَرِبَةٌ ، ومن التِّين ، والعنب ، والفواكه كتِنةٌ ، وكمدةٌ ،

(١) قال ياقوت في ترجمة أبي علي الفارسي من معجم الأدباء : قرأت بخطِّ الشَّيخ أبي محمَّد الخشَّاب : كان شيخنا (يعني : الجواليقي) قلَّما يتنبَّل عنده ممارسٌ للصِّناعة النَّحويَّة ، ولو طال فيها باعه ، ما لم يتمكَّن من علم الرِّواية ، وما تشتمل عليه من ضروبها ، ولا سيَّما رواية الأشعار العربيَّة ، وما يتعلَّق بمعرفتها من لغةٍ وقصَّةٍ ؛ ولهذا كان مقدماً لأبي سعيد السِّيرافي على الفارسي ـ رحمهما الله ـ ويقول : أبو سعيد أروى من أبي عليٍّ ؛ وأكثر تحقُّقاً منه بالرِّواية ، وأثرى منه فيها . (ع) .

ولزجَةٌ ، ومن العشب كتِنةٌ أيضاً ؛ ومن الجبن نَسِمَةٌ ، ومن الجص شَهِرَةٌ ، ومن الحديد ، والشَّبه[١] ، والصُّفر ، والرَّصاص سهِكةٌ ، وصدِئةٌ أيضاً ، ومن الحمأة ردِغةٌ ورزِغةٌ ، ومن الخضاب رَدِعةٌ ، ومن الحنطة ، والعجين ، والخبز نسِغةٌ ، ومن الخلِّ ، والنَّبيذ خَمِطَةٌ ، ومن الدِّبس ، والعسل دبقةٌ ، ولزقةٌ أيضاً ، ومن الدَّم شحطةٌ وشرِقةٌ ، ومن الدُّهن زَنِخةٌ ، ومن الرَّياحين زكِيَّةٌ ، ومن الزَّهر زهِرَةٌ ، ومن الزَّيت قَنِمَةٌ ، ومن السَّمك سَهِكةٌ ، وصَمِرةٌ ، ومن السَّمن دسِمةٌ ، ونسمةٌ ، ونمسةٌ ، ومن الشَّهد ، والطِّين لثِقةٌ ، ومن العِطر عَطِرةٌ ، ومن الغالية عَبقةٌ ، ومن الغسلة ، والقِدر وحِرَةٌ ، ومن الفرصاد قنِئةٌ ، ومن اللَّبن وَضِرَةٌ ، ومن اللَّحم ، والمرق غَمرةٌ ، ومن الماء بَلِلةٌ ، وسَبِرةٌ ، ومن المسك ذَفرةٌ ، وعبِقةٌ ، ومن النَّتِن فنِمَةٌ ، ومن النِّفط جَعِدةٌ . انتهى .

فالمسموع من هذه الألفاظ عن العرب لا يتجاوز سبعاً فيما ترى . والباقي كلُّه أجراه علماءُ اللُّغة ، وأهل الأدب على القياس ؛ فأبدع القياسُ منها أربعاً وثلاثين كلمةً ؛ ولو تدبَّرت كيفيَّة استخراجها ، ورجعت إلى الأصول الَّتي أخذت منها ؛ لأيقنت : أنَّ هذه العربيَّة هي أوسع اللُّغات كافَّةً ؛ وأنَّها من أهلها كالنُّبوَّة الخالدة في دينها القَويِّ ، تنتظر كلَّ جيلٍ يأتي ، كما ودَّعت كلَّ جيلٍ غبر[٢] ؛ لأنَّها الإنسانيَّة ، لهؤلاء ، وهؤلاء .

إنَّ ظهور مثل هذا الشَّرح كالتَّوبيخ لأكثر كتَّاب هذا الزَّمن : أن اقرؤوا ، وادرسوا ، وخصُّوا لغتكم بشطرٍ من عنايتكم : وتربُّوا لها بتربيتها في مدارسكم ، ومعاهدكم ، واصبروا على معاناتها صبر المحبِّ على حبيبته ، فإن ضعفتم ، فصبر البارِّ على مَنْ يلزمه حَقُّه ، فإن ضعفتم عن هذا ؛ فصبر المتكلِّفِ المتجمِّل على الأقلِّ .

* * *

(١) « الشبه » : النُّحاس الأصفر .

(٢) « غبر » : مضى .